

التأثير الأندلسي في المجال الثقافي للمغرب الأدنى من القرن 7-9 هـ / 13-15 م.

The Andalusian Influence on the Cultural Field of Al-Maghreb al-ādna (Tunisia) from the 7th-9th century AH/13-15AD

مريم بوعامر

طالبة دكتوراه ، قسم التاريخ

جامعة أبوبكر بلقايد - تلمسان.

الملخص:

لقد كان للمهاجرين الأندلسيين دور هام في الازدهار الحضاري للمغرب الأدنى في مختلف المجالات وخاصة المجال الثقافي بفضل هجرة الكثير من علماء الأندلس الذين تخصصوا في مختلف العلوم سواء النقلية والعقلية وقد أدخلوا الكثير من التغيير. ومن أبرز الميادين التي مسها هذا التأثير ميدان التعليم، حيث أحدثوا أساليب تربوية جديدة في طرق التعليم ومنهجيته، ومن المجالات التي شملها التأثير أيضا الميدان الثقافي. كما كان للمجال العلمي حظ وافر من التأثير الأندلسي، فقد انتفع المغرب الأدنى بهروب الأدمغة إليه، ويعتبر الطب من أهم العلوم التي مسها هذا التأثير أيضا. الكلمات المفتاحية: أفريقية؛ الجالية الأندلسية؛ التأثيرات؛ العلوم؛ المغرب الأدنى.

Abstract

Andalusian immigrants have been playing an important role in the flourishing of Tunisia's civilization in various fields, especially in the cultural field, thanks to the immigration of many Andalusian scholars specializing in various fields of science. One of the most prominent areas that this influence touched upon is field education, as it caused new educational methods in teaching methods and methodologies, in addition to areas covered by cultural influence such as medicine, poetry, architecture, and music.

Keywords : tunisia ; andalusian immigrants ; sciences, education.

تقديم:

توافد إلى المغرب الأدنى العديد من المهاجرين الأندلسيين خاصة مع مطلع القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي بسبب تدهور الأوضاع السياسية وسقوط معظم مدن الأندلس في يد النصارى وقد أسهم هؤلاء المهاجرون الأندلسيون بشكل واضح في الازدهار الحضاري للمغرب الأدنى في مختلف المجالات الحضارية لا سيما في المجال الثقافي. وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى كثرة المهاجرين المثقفين وكبار العلماء الذين أسهموا بفعالية في تغيير وجه البلاد الثقافي وأدخلوا الكثير من التغيير على الساحة الفكرية بالمغرب الأدنى¹ حتى أصبح هذا الإقليم وغيره كتلمسان والمغرب الأقصى وريثا للعلوم الأندلسية².

و من أبرز الميادين الثقافية التي مسها هذا التأثير بشكل واضح :

1/ ميدان التعليم:

باشتغال المهاجرين الأندلسيين في مجال التعليم الابتدائي في المغرب الأدنى بغرض الارتزاق منه تغيرت طرق التعليم و مناهجه، و مما لا شك فيه أن الأندلسيين لتفوقهم الثقافي وانتشار المعرفة في صفوفهم كان الإقبال بل التهافت عليهم عظيما إلى حد جعلهم يحتكرون مهنة التعليم³، و كانوا يزاولون مهنتهم هذه في المدارس و المساجد أما الذين لا يجدون مكانا في تلك المؤسسات الدينية و الثقافية فيلجؤون إلى منازلهم و يخصصونها لاستقبال الطلبة⁴.

و كانت نتائج هذا الاحتكار إيجابية جدا إذ أدخلوا أساليب تربوية جديدة و أثروا في طرق التعليم و قد قوبلت منهجيتهم بالاستحسان و نشرها في البلاد و عمومها. و يروي لنا ابن خلدون و الذي يعتبر شاهد عيان على كيفية وقوع هذا التحول على يد الأندلسيين في خضم حديثه عن طرق التعليم في المغرب الأدنى فيقول: "... و أما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب و مدرسة قوانين العلوم و تلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن و استظهار الولدان إياه و وقوفهم على اختلاف رواياته و قراءاته أكثر مما سواه و عنايتهم بالخط تبعا لذلك و بالجملة فطريقتهم لتعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصراري على شرق الأندلس و استقروا بتونس، و أخذ عنهم ولدانهم بعد ذلك"⁵.

و قد أدى احتكار أهل الأندلس لميدان التعليم دون غيرهم إلى اضمحلال الخط الإفريقي وتعويضه بالخط الأندلسي و يشير ابن خلدون إلى ذلك قائلا: "و أما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها و من خلفهم من البربر و تغلب عليهم أمم النصرانية، فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقيا من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع و تعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفى عليه، ونسي خط القيروان و المهدي بنسيان عوائدهما و صنائعهما و صارت خطوط أهل إفريقيا كلها على الرسم الأندلسي بتونس و ما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم، إنما كانوا يغدون على دار الملك بتونس، فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس"⁶.

و لم يقتصر التأثير الأندلسي على ميدان التعليم الابتدائي فحسب و إنما شمل أيضا التعليم العالي الذي تنافس عليه الأندلسيون و أهل البلاد ونظرا لأن التعليم في هذا المستوى يؤدي في كثير من الأحيان إلى الجاه و النفوذ و كان الحفصيون على العموم يميلون إلى المدرسين الأندلسيين لشهرتهم وكفاءتهم⁷. و مما يثبت ذلك تعيين السلطات الحفصية لمدرسين في المدارس الرسمية، ومن بين مشاهير العلماء الوافدين من الأندلس و المشتغلين بالتدريس نذكر: - أبا بكر محمد ابن أحمد ابن سيد الناس: الذي قدم في جالية إشبيلية، و قد ولد بها سنة 600هـ/1203م، و تتلمذ على يد جملة من مشائخها منهم موسى ابن الحسن العتيبي الزاهد و أبو الحسن ابن جبير، و كان ظاهري المذهب حافظا للحديث عارفا برجاله وأسمائهم⁸.

و عند قدومه من إشبيلية نزل ببجاية و ولي صلاة الفريضة و الخطبة بالجامع الأعظم وسمع عنه طلبتها، و لما بلغ أمره إلى السلطان الحفصي المستنصر (647-675هـ/1249-1276م) استدعاه قربه إليه⁹، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند جامع الهواء التي أسسها أم الخلائف¹⁰. وقد توفي رحمه الله بحاضرة تونس سنة (659هـ/1261م)¹¹. ولم يكن ابن سيد الناس الوحيد الذي ارتقى إلى هذه الوظيفة بل انتظم في سلك المدرسين أندلسي آخر هو الفقيه الحافظ المثقف، التاريخي، المدرس المحدث أبو العباس أحمد ابن محمد القرشي الغرناطي الذي نزل ببجاية ودرس بالجامع الأعظم ثم انتقل إلى المغرب و لقي عددا من كبار العلماء ثم رجع إلى حاضرة إفريقية و عكف على التدريس والتذكير بعلم الرواية إلى أن توفي رحمه الله¹².

و ممن انتدب إلى هذه الوظيفة كذلك اسحاق ابن محمد ابن علي العبدري الميورقي (ت 642هـ / 1244م) الفقيه المحدث ارتحل من ميورقة إلى بلنسية فولى القضاء بدانية في سنة 627هـ / 1229م ثم هاجر منها إلى تونس و ظل يعلم بها إلى أن توفي هناك¹³.

إضافة إلى هؤلاء العلماء أحصى محمد الحبيب خوجة اعتمادا على رحلة ابن رشيد ما لا يقل عن 35 عالما أندلسيا دخلوا إفريقيا في القرن 7هـ/13م كما أحصى الغبريني في كتابه: "عنوان الدراية" في نفس الفترة الزمنية ثلاثة وثلاثون من مشايخ الأندلس ممن مر بجاية أو استقر بها نهائيا¹⁴ معظمهم اشتغل في ميدان التعليم و أسهموا في تنظيم حلقات التعليم بالمدارس و المساجد خاصة بجامع الزيتونة و أسمعو و أجازوا طلابهم حسب طريقة الإجازة المؤلفوة التي تعتمد على السماع¹⁵.

كما ساهم الأندلسيون بقسط كبير في دفع حركة التعريب بالمغرب عامة ومنه بالمغرب الأدنى وساهموا كذلك في تطوير طرق الكتابة ورسم الخط¹⁶.

2/ الحركة الأدبية: و من بين المجالات الثقافية التي شملها التأثير الأندلسي الميدان الأدبي فلقد انتقل إلى مدن المغرب الأدنى خاصة الساحلية منها جمع من مشاهير الأدباء و أمجاد الشعراء أدوا دورا هاما في إثراء هذا المجال و نذكر من بين هؤلاء على الخصوص:

-أبو إلياس أحمد ابن القاسم ابن القصير الإشبيلي (كان حيا سنة 647هـ/1285م) الأديب الشاعر الخطاط كان معلما بإشبيلية ثم طنجة ، تجول شرقا و غربا ، ثم استوطن تونس 13، عرف بصلاته مع رجال البلاط الحفصي و بالخصوص مع الوزير أبي الحسين العنسي له في السلطان الحفصي المستنصر ورجال دولته مدائح كثيرة¹⁷.

-أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي (610-685هـ/1213-1286م): الفقيه الأديب الجغرافي ، هاجر من الأندلس و استقر بتونس و له عدة مؤلفات منها: "القدح المحلى" "المغرب في حلي المغرب" ، "الغصون اليبانة في شعراء المائة السابعة"¹⁸.

-أبو الحجاج يوسف ابن محمد البيساني توفي بتونس سنة 653 هـ / 1255 م الذي صنف بتونس سنة 646 هـ/ 1248 م "كتاب الحماسة"¹⁹، و هو عبارة عن ديوان يتكون من مجموعة من القصائد و الروايات المنقولة عن الكتاب الآخرين²⁰.

-أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأنصاري القرطاجي الشهير بحازم القرطاجي: (608-684 هـ/1184-1260م) النحوي الشاعر المشهور نزل بتونس و استقر بها و هو صاحب المقصورة الشعرية التي نظمها إكراما للسلطان المستنصر الحفصي و أهداها إليه²¹، وقد اشتملت هذه القصيدة على ألف بيت تناول فيها حازم القرطاجي ذكرا للديار المهجورة و رثاء لحال البلاد الأندلسية كما تضمنت مدحا للخليفة الحفصي و انتصاراته و قصوره و جيوشه²².

-محمد الخير المالقي الذي نبغ في الشعر في تونس خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي، وقد قدم من مالقة سنة 864 هـ / 1560 م و التحق بخدمة الأمير محمد ابن عثمان فمدحه و تولى الكتابة له²³.

لقد كان لهؤلاء الأدباء والشعراء و غيرهم دور في ازدهار الأدب بنوعيه النثر الفني والشعر فقد ساعدوا على انتشار فن الترسل الخاص أو العام والمتمثل في تحرير الرسائل بأسلوب راق سواء الصادرة عن الخواص أو عن الدوائر الرسمية²⁴ أما في ميدان الشعر فيظهر التأثير الأندلسي في العهد الحفصي من خلال التأنق و اللطف المتكلف وحب النكتة و اختيار الصور و المقارنات²⁵.

أما فيما يخص النحو ومبادئه الأولية فقد احتل فيه الأندلسيون مكان الصدارة و برع فيه أندلسيان هما:

-أبو الحسن علي بن موسى الخصرمي المعروف بابن عصفور (597-669 هـ/1200-1270 م) ولد بإشبيلية. أخذ كتاب سيوبيه بالأندلس في عشر سنين و علم بإشبيلية و شريش ومرسية و غيرها ، قدم إلى تونس فاستوطنها و عكف على التدريس بها حتى قتل بإيعاز من الخليفة المستنصر²⁶ ومن تأليفه "المغرب والممتع في الإشتقاق"، "المقرب في النحو"²⁷.

-أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلي (613-691 هـ/ 1216-1292 م) قرأ بالأندلس على يد كبار مشائخها أمثال : أبو العلي الشلوبين ارتحل إلى بجاية ثم استقر بتونس و من تأليفه: وشي الحلل ، الجهل ، الفصيح ، الثعلب²⁸.

3/المجال العلمي:

لقد كان للمجال العلمي حظ وافر من التأثير الأندلسي فقد انتفع المغرب الأدنى بهروب الأدمغة إليه من الأندلس ويُعتبر الطب من أهم العلوم التي مسها هذا التأثير.

و الجدير بالذكر أن معظم الأطباء الذين احتشد بهم بلاط المرابطين و الموحيدين كانوا من ذوي الأصول الأندلسية وقد ساهموا في تطوير الطب وازدهاره بالمغرب، كما بذلوا جهودا جبارة في مجال اختصاصهم فقاموا بالتصدي للطبيب و معالجة العامة، كما درّسوا الطلبة في مجال قدرتهم على إجراء التجارب العلمية واستنتاج النتائج الطبية وصنفوا في ذلك كتباً عديدة²⁹.

ومن هؤلاء الأطباء الذين عملوا في مجال الطب: أبو العلاء زهر ابن أبي مروان³⁰ الذي توجه للعمل في البلاط المرابطي بدعوة من يوسف ابن تاشفين وبعد وفاة ابن تاشفين بقي أبو العلاء زهر طبيباً لابنه الذي عينه وزيراً له³¹. أما من أشهر الذين عملوا في البلاط الموحيدي الطبيب ابن أبي العلاء زهر ابن أبي مروان (ت 557هـ/1161م)³² الذي استدعاه عبد المؤمن بن علي إلى مراكش و اتخذهُ طبيباً خاصاً له³³.

ولم يكن هذا المجال حكراً على الرجال فحسب بل نجد من النساء اللواتي اشتغلن كطبيبات في العهد الموحيدي أخت الطبيب الحفيد أبو بكر بن زهر وابنتها والتين كانتا عارفتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة بأمراض النساء³⁴. وقد واصل الطب ازدهاره وتقدمه في عهد بني حفص بالمغرب الأدنى ومن الأطباء الأندلسيين البارزين خلال هذا العهد نشير إلى:

-أبو العباس أحمد بن خالد: (ت 660 هـ/1262م) : وهو من أهل مالقة نشأ بالأندلس و تعلم بمراكش ثم انتقل إلى بجاية و درس بها كتاب "الإرشادات والتنبيهات" لابن سينا و ممن قرأوا عليه الغبريني.

-أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن أندراس (ت 674 هـ/1273م) : وهو الفقيه اللغوي الطبيب الشهير من أهل مرسية ، ورد على بجاية سنة 660 هـ/1262م فواضب على تدريس الفقه و الطب واللغة العربية بجامعة كما مارس مهنة الطب لدى ولاية بجاية ، و يشير الغبريني أنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا³⁵.

ولما ذاع صيته استدعاه المستنصر الحفصي إلى بلاطه وضمه إلى سلك أطبائه، و بقي بتونس حتى توفي بها³⁶ و أنجب ابن أندراس ابناً هو أبو يعقوب يوسف (ت 739 هـ/1339م) و الذي برع هو أيضاً في الطب³⁷.

كما أشارت المصادر التاريخية إلى عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين الذين قدموا إلى المغرب الأدنى خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي واختصوا في هذا المجال أشهرهم:

-محمد بن محمد بن عيشون اللخمي المرسي (توفي بعد سنة 721 هـ / 1320م) : المحدث الطبيب، رحل من مرسية إلى بجاية، فأقام بها مدة و عين بها طبيباً لابن الليحاني ثم غادر بجاية إلى ألمرية وتوفي هناك³⁸.

-أبو جعفر محمد بن أحمد بن يوسف الأنصاري (ت 763 هـ/1361م) : اشتهر بالطب والحساب والفلك، كان ذائع الصيت بغرناطة إلا أن سلطانها نفاه إلى البلاد الحفصية في سنة (763 هـ/1361م)³⁹.

-أبو عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي: عاش خلال القرن الثامن الهجري أديب وطبيب استقر بالبلاد الحفصية ثم ضمه السلطان أبو العباس أحمد الحفصي (772-796 هـ/1370-1394م) إلى سلك أطبائه⁴⁰.

إضافة إلى هؤلاء الأطباء المذكورين نجد آخرين أمثال : أبو الحجاج يوسف أصيل قرمونة والذي حظي بتقدير شخصي بالغ في بلاط السلطان الحفصي أبو العباس⁴¹ ، و غالب ابن علي بن محمد اللخمي الغرناطي (ت 741هـ/1340م)⁴² .

ورغم أهمية هذا التأثير و هذا العدد الهائل من الأطباء الأندلسيين ذوي الخبرة و الحذق في صناعة الطب لم يتمكنوا من إحداث مدرسة شبيهة بمدرسة القيروان التي ذاع صيتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين (9 و 10 م)⁴³ .

و يعد علم النبات أيضا من العلوم التي أثر فيها الأندلسيون فقد برع في هذا العلم عالمان أندلسيان هما: -أبو العباس أحمد بن مفرج المعروف بابن الرومية: المولود سنة 567هـ/1171م الذي أقام مدة بتونس ثم عاد إلى إشبيلية ومات بها سنة 637 هـ/1239 م⁴⁴ .

-ابن البيطار : الذي ورد على تونس من مالقة و له عدة مؤلفات في الطب تابع طريقة نحو الشرق وتوفي بدمشق سنة 646هـ/1248 م⁴⁵ .

أما الرياضيات و هي إحدى العلوم العقلية فقد تأثرت بأهم رياضي أندلسي انتقل إلى تونس في الفترة المدروسة وهو أبو الحسن القلصادي (توفي 891هـ/1486م) الذي اشتهر بالفقه والفرائض والحساب وله عدة مؤلفات في مجال الحساب ألف معظمها في تونس ومنها: "كشف الجلباب في علم الحساب" ، "القانون في الحساب"⁴⁶ .

إضافة إلى القلصادي نجد: أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبي (ت 639 هـ/1241م) كان متضلعا في علم الحساب، أصله من قرطبة درس بمراكش و فاس وتونس وغيرها من الأقطار ثم استقر بتونس حتى وفاته⁴⁷ ، وكذلك محمد بن إبراهيم محمد الأوسي المرسي المعروف بابن الرقام (توفي سنة 715هـ/1315م) من أهل مرسية نزح غرناطة برع في الحساب والهندسة والطب، اتجه إلى الحج وأقام مدة بتونس ثم استقر بقرطبة حتى وفاته بها⁴⁸ .

و نجد أيضا ممن مر بتونس في هذه الفترة وتخصص في الحساب إبراهيم بن عبد الله بن عبد العزيز النيمري الغرناطي (ت 764 هـ/1362 أو 1363م) ولد بقرطبة و تعلم بها ثم ارتحل إلى المشرق، استكمل تعليمه بتونس ومصر وعاد إلى غرناطة⁴⁹ .

4/ المجال الفني والمعماري:

لعل أعمق تأثير أندلسي وأخلده في المغرب الأدنى هو الذي حدث في ميدان الفن وخاصة الموسيقى، والموسيقى كما يعرفها ابن خلدون: هي "معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء"⁵⁰ .

وقد كانت العناية بهذا النوع من الفنون شديدة بالأندلس وكان الشغف بها قويا في جميع المستويات والأوساط فلم تكن فنا فحسب بل كانت أيضا علما متمما للفلسفة والطب و له صلة متينة بالأشعار وخاصة الموشحات والأزجال⁵¹ . و يرجع الفضل في التطور الكبير الذي شهدته الموسيقى بالأندلس إلى أبو الحسن علي بن نافع (173-238هـ/789-852م) الذي نشأ بالعراق وكان مولى للخليفة العباسي المهدي (158-169هـ/775-785م) وقد تتلمذ على يد إسحاق الموصلي ، ثم انتقل إلى الأندلس و يلقب بزرياب لسواد لونه⁵² ، وفي ذلك يقول المقري: "و زرياب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله ، شَبَّه بطائر أسود غرد عندهم وكان شاعرا مطبوعا..."⁵³ .

ويعتبر زرياب واضع أسس المالوف وصاحب مدرسة تميزت بأسلوب خاص في التلقين والتعليم، ومن أهم الأعمال التي ارتبطت به في الأندلس تغييره لمضرب العود وإضافته وترا خامسا لهذه الآلة⁵⁴ ، أما المضرب فقد صنعته من قوادم النسر عوض الخشب وقد أشار المقري إلى ذلك قائلا: "وهو الذي اخترع بالأندلس مضرب العود من قوادم النسر

معتاضا به من مرهف الخشب فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة و نقائه و خفته على الأصابع و طول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه"⁵⁵.

وممن اعتنى بالموسيقى في الأندلس نجد الفيلسوف أبا بكر بن باجة (ت 522هـ/1428م) فبالإضافة إلى مؤلفاته في الفلسفة و علم النفس والهندسة و الفلك اهتم أيضا بالموسيقى فألف فيها ولحن الألحان الموسيقية⁵⁶. و كان ابن باجة صاحب مدرسة نبغ فيها العديد من التلاميذ كأبي عامر محمد بن الحمار الغرناطي الذي "برع في علم الألحان و اشتهر عنه أنه كان يعتمد للشعراء فيقطع العود بيده ثم يضع منه عودا للغناء و ينظم الشعر و يلحنه و يفي به"⁵⁷.

ومن معاصري ابن باجة الذين أولوا الموسيقى أهمية بالغة نذكر أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي (460-529هـ/1068-1134م) المؤرخ الشهير الشاعر الموهوب عرف ببراعته في الفلسفة والرياضيات والطب والموسيقى وله كتاب في الأدوية المفردة وقد تُرجم إلى اللاتينية والعبرية⁵⁸، ويقول عنه المقرئ: "أمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته، وكان يكنى بالأديب الحكيم، وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية"⁵⁹. ولأبي الصلت يرجع الفضل في إدخال الموسيقى الأندلسية إلى إفريقية ذلك أنه هاجر إلى إشبيلية سنة 489هـ/1096م أي بعد سقوط طليطلة فتوجه أولا إلى الإسكندرية ثم استقر بالمهدية حيث لقي في البلاط الزيري أحسن قبول⁶⁰، وغزت على يديه أمواج الألحان الأندلسية إفريقية قبل أن تغزوها أمواج اللاجئين⁶¹، وهذا الدور الذي أداه أبو الصلت في تطوير الفن الموسيقي بإفريقية شبيه بالدور الذي أداه زرياب في الأندلس.

والجدير بالملاحظة أن الموسيقى في بلاد المغرب لم تلق نفس الاهتمام الذي لقيته بالأندلس وذلك راجع لتشدد المرابطين والموحدين من بعدهم في حرمة هذا الأمر، وتزمت رجال الدين الذين كانوا مناهضين لكل آلة من الآلات الموسيقية أمثال المهدي بن تومرت الذي حطم العديد من الآلات الموسيقية أثناء دعوته الإصلاحية⁶²، كما أن علماء المذهب المالكي سمحوا باستعمال آلة الدف في الأعراس لا غير شرط أن يكون خاليا من الأوتار المشدودة تحت الجلد⁶³. غير أن هذا لا ينفي وجود بعض الآلات الموسيقية كالأبواق في المساجد خلال شهر رمضان، كما استعمل الطبل أيضا كأداة تنبيه لأغراض عسكرية⁶⁴.

ورغم تلك الاحترازمات الدينية إلا أن الميل إلى الموسيقى في المغرب الأدنى كان منتشرًا بما فيه الكفاية خاصة في المدن التي استقر فيها الأندلسيون اللاجئون إلى بجاية والكثير منهم استوطنوا واستقر بها نهائيا⁶⁵ فكان من نتائج هذا الاستقرار شيوع الفن الموسيقي الأندلسي بهذه المدينة حتى أصبحت مدينة شبيهة بإشبيلية في شغفها بالموسيقى وانصرافها إلى الطرب⁶⁶.

وهو الأمر الذي يوضحه ليون الإفريقي الذي زار إفريقية في الربع الأول من القرن السادس عشر ميلادي وفي وصفه لأهل بجاية يقول: "والبجائيون أناس طيبون مبالون إلى المرح والموسيقى والرقص لاسيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب قط على أحد"⁶⁷، ويقول أيضا في وصف لأهل تدلس: "وهؤلاء السكان ذو بشاشة ومرح يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيتار"⁶⁸، وهذه الصفات التي أشار إليها ليون الإفريقي تناسب تماما أهل الأندلس ومن تأثر بعاداتهم وأذواقهم من أهل المغرب.

وفي مدينة تونس كذلك اهتم السلاطين الحفصيون بالموسيقى ومن مظاهر ذلك الاهتمام إلغاء السلطان أبي فارس (796-837هـ/1393-1433م) ضريبة كانت مفروضة على الموسيقيين والمغنيات والمحترفات⁶⁹. كما كان كثير من سلاطين بني حفص يستمعون داخل قصورهم إلى بعض الجواري المغنيات والموسيقيين البارعين⁷⁰.

ومن أعمق مظاهر التأثير الأندلسي في مجال الفن و الموسيقى هو ارتكاز الفن التلحيني في المغرب على النوبات⁷¹ التي نقلها معهم المهاجرون الأندلسيون، وبما أن الموسيقى لم تكن مكتوبة فقد ضاع عدد النوبات فحاول بعض الموسيقيين جمعها حفاظا عليها من الضياع فأحصوا حوالي ثلاثة عشر نوبة في تونس⁷². هذا عن الفنون الموسيقية أما فيما يخص الفنون المعمارية والهندسية فقد تأثرت هي الأخرى بالعناصر الأندلسية والمغربية وحتى المشرقية وإنه ليصعب في كثير من الأحيان التمييز بين التأثيرات الأندلسية والمغربية نظرا لما تتسم به من سمات مشتركة.

ومن ملامح ومظاهر التأثير الأندلسي في العمارة الحفصية زاوية سيدي قاسم الزليجي بمدينة تونس المقامة في أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) والتي اقتبست مظهرها الأندلسي الرائع من خزفها وقبتها المبنية بالقرميد وهي ذات أصل أندلسي مغربي.

أما عن التأثيرات المشرقية في الفن المعماري فقد تمت بفضل العلاقات الاقتصادية والثقافية بين مصر وتونس وبفضل عبور الحجيج فوق أراضيها، ومن أهم ملامح هذا التأثير الجمع بين المدرسة وبين ضريح مؤسسها، وكذلك انتشار الحنفيات العمومية في العاصمة الحفصية⁷³.

ورغم ما تمت الإشارة إليه في تأثير أندلسي في مجال العمران بالمغرب الأدنى إلا أنه يبقى أبلغ وأوضح في كل من المغرب الأوسط والأقصى، وهو ما تشهد عليه الآثار الباقية حتى الآن كمساجد تلمسان التي كانت آنذاك عاصمة للدولة الزيانية.

الهوامش:

- ¹ محمد الطالبي، الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا أيام الحفصيين، مجلة الأصالة، العدد 26، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1975، ص 46، محمد رزوق، دراسات في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، مطبعة إفريقيا الشرق، 1991، ص 35.
- ² القلصادي أبو الحسن علي بن محمد، رحلة القلصادي "تمهيد الطالب ومنتهى الراغب في أعلى المنازل والمناقب"، تحقيق محمد أبو الأجناف، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 26.
- ³ مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية "مدن الشرق"، الجزء الثالث، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 264.
- ⁴ محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 65.
- ⁵ ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن، المقدمة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بيروت، 2007، ص-ص 584-588.
- ⁶ نفسه، ص 426.
- ⁷⁷ محمد رزوق، المرجع السابق، ص 36.
- ⁸ أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 246-247، ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط ومراجعة خليل شحادة وسهيل زكار، الجزء السادس، الطبعة الثانية، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص 437.
- ⁹ نفسه، ص 247، عمرو محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 189.
- ¹⁰ ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج 6، ص 438.
- ¹¹ الغبريني، المصدر السابق، ص 549، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، دار النشر ببيروت، 1997، ص 298.

- ¹² الغبريني، المصدر السابق، ص 301-302
- ¹³ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (ابن الآبار)، التكملة لكتاب الصلة، تعليق ألفريد بيل، ابن أبي شنب، المطبعة الشرقية، الجزائر، 1920، ص 171.
- ¹⁴ محمد الطالب، المرجع السابق، ص 67.
- ¹⁵ محمد بن أحمد بن علي العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، الطبعة الأولى، مطبعة البعث، قسنطينة، ص-ص، 60-61.
- ¹⁶ محمد بوشقيف، العلوم الدينية بالمغرب الأوسط خلال القرن 9هـ/15-16م، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة وهران، 2004/2003، ص 29، سعيدوني ناصر الدين، التجربة الأندلسية بالجزائر، ندوة الأندلس، ط1، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1996، ص 88.
- ¹⁷ عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس الفترة: 626-981 هـ، 1288-1573م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1991، ص 567.
- ¹⁸ برهان الدين بن علي بن محمد ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، الطبعة الأولى، مطبعة الفحامين، مصر، 1351هـ، ص 112.
- ¹⁹ روبر بارنشيوفك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى 15م، ترجمة حمادي الساحلي، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 419.
- ²⁰ نفسه، ص 419.
- ²¹ محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1949، ص 197.
- ²² روبر بارنشيوفك، المرجع السابق، ص 428.
- ²³ القلصادي، المصدر السابق، ص 27.
- ²⁴ روبر بارنشيوفك، المرجع السابق، ص 421.
- ²⁵ نفسه، ص 426.
- ²⁶ الغبريني، المصدر السابق، ص-ص 266-268، محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ج 1، ص 197.
- ²⁷ الغبريني، نفسه، ص 268، محمد عمرو الطمار، المرجع السابق، ص-ص: 201-202.
- ²⁸ الغبريني، نفسه، ص-ص 300-301.
- ²⁹ محمد عادل عبد العزيز، الجذور الأندلسية في الثقافة المغربية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص 150.
- ³⁰ توفي بالأندلس سنة 525هـ/1130م، له تصانيف كثيرة في الطب منها: "الأدوية المفردة"، "الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان"، ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 4، تحقيق س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1989، ص 85.
- ³¹ محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص 15.
- ³² ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 4، ص-ص 178-17.
- ³³ محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص 151، ص 152.
- ³⁴ نفسه، ص 152.
- ³⁵ نفسه، ص 101، محمد عمرو الطمار، المرجع السابق، ص-ص 205-206.
- ³⁶ الغبريني، المصدر السابق، ص 102.
- ³⁷ أبو العباس أحمد بن محمد ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج 2، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، 1981، ص-ص: 69-70.
- ³⁸ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ج 1، دار الكتب الحديثة، مصر، 1966، ص 307-306.
- ³⁹ شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج 2، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص 214.
- ⁴⁰ روبر بارنشيوفك، المرجع السابق، ص-ص 389-390.

- ⁴¹ لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984 ص- ص 240-241.
- ⁴² محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 71.
- ⁴³ ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص-ص، 240-241.
- ⁴⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص-ص 115-221.
- ⁴⁵ المقرئ، نفح الطيب، المصدر السابق، ج2، ص-ص 44-45.
- ⁴⁶ أبو العباس أحمد بن أحمد التنبكي، نيل الإبهاج بتطريز الديباج، ج3، مطبعة الفحامين مصر، 1351هـ، ص 210.
- ⁴⁷ عاشور بوشامة، المرجع السابق، ص 556.
- ⁴⁸ ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج3، ص-ص 69-70.
- ⁴⁹ ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج1، ص 29-30.
- ⁵⁰ ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 43.
- ⁵¹ روبر بارنشيوفك، المرجع السابق، ص 432، محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 71.
- ⁵² المقرئ، نفح الطيب، المصدر السابق، ج3، ص 122، محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 75.
- ⁵³ نفسه، ص 122.
- ⁵⁴ نفسه، ص 126.
- ⁵⁵ نفسه، ص-ص 126-127.
- ⁵⁶ محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص 159.
- ⁵⁷ المقرئ، نفح الطيب، المصدر السابق، ج4، ص 140.
- ⁵⁸ محمد الطالبي، المرجع السابق، ص-ص 71-72.
- ⁵⁹ المقرئ، نفح الطيب، المصدر السابق، ج2، ص-ص 105-106.
- ⁶⁰ محمد رزوق، المرجع السابق، ص 43.
- ⁶¹ محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 72.
- ⁶² روبر بارنشيوفك، المرجع السابق، ص 432.
- ⁶³ نفسه، ص 432.
- ⁶⁴ نفسه، ص 433.
- ⁶⁵ محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 73، محمد عمرو الطمار، المرجع السابق، ص 161.
- ⁶⁶ محمد رزوق، المرجع السابق، ص 44.
- ⁶⁷ الحسن بن محمد الفاسي الوزان، وصف إفريقيا، ج3، تحقيق محمد حاجي، محمد الأخضر، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 51.
- ⁶⁸ نفسه، ص 42.
- ⁶⁹ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، الطبعة الثانية، المكتبة العتيقة، تونس، ص 117.
- ⁷⁰ أشار الزركشي إلى أن الوزير ابن جبير كان مشغولا بالملاهي، ينظر: الزركشي، المصدر نفسه، ص 42.
- ⁷¹ النوبة هي نوع من التأليف الموسيقي يتناوب فيه التأليف الغنائي و التأليف الآلي، ويرتكز على قواعد محدودة و تراكيب موسيقية تتبع بعضها على نظام واحد، والنوبة ابتكار أندلسي من آثار زرياب الأندلسي ورثته بلاد المغرب عن الأندلس، ينظر: محمد عمرو الطمار، المرجع السابق، ص 246.
- ⁷² محمد عمرو الطمار، المرجع نفسه، ص 246.
- ⁷³ روبر بارنشيوفك، المرجع السابق، ص 435-436.